فصل في الجحيم

فوزى خضر



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٥



فصل في الجحيم

افرتيرا

خيـــلٌ من المـــاء فى جنبىّ تستبقُ

والنهر يركض فى صدرى .. وأحترقُ

ف . خضر

المشهد الأول

من سيرة الجواد المعاند

(الى نجوى)

١

الجوادُ المعاندُ يدخــل فى الشمسِ ، تدخــل فيه . .
وتخرج منه : صهيلاً وحمحمــةً ،
تتناثر – تحت سنابكه – شُعَلا من شظايا النجوم
وينفجر الماء فى جسد الأرض ، يجنح فيها الجواد المعــاند ،
ملتهباً يتخاصم والأرضَ ، يدخل فى الشمسِ ، تدخل فيه . . ،
تلوِّنه باللهيبِ ، يلوّنها بالصهيل ، تعلّمه ويعلّمهــا .
وأجيئك ملتهباً ،

أتخاصم والأرض ، تشتعلُ الشمسُ فى الرأسِ .

والماءُ يغرقنى

– ترقبين السفائن .. والارضُ عاهرةٌ – تزوجها الماء

تشتعل الشمس فى الـــرأسِ

– فوق انحدار الجبال الجـــوادُ المعانـــد ،

ينهمر الصخر تحت سنابكه . ويعافرُ

نَصّاعَدُ الحمحماتُ – الغبارُ – وتخبط أقدامه .. ويعافرُ

تشتعل الشمس فى الرأسِ

تشتعل الشمس فى الرأسِ

مدعوّةٌ ترقصين .. هو العرسُ.. (والأرضُ عاهرةٌ يتزوجها الماء)

تلتفُّ حولَكَ من مُقَلِ الحاضرين ثعابينُ من مطرٍ ....وأنــا

بالتراتيلِ أدعوكِ ملتهباً غارقاً .. والتراتيلُ خـــافتةٌ :

كلّما أنبتَ اللهيبُ جـــداراً

يُحْدِثُ المـــاءُ فى لهيبىَ شرْخـــا

وإذا رُمْتُ أن تكــونىَ عُشاً

كنتَ فى بدايةِ الخطو فَخَّــا!

فتعالىْ كما تكونين ... إنى

دونكِ : العظمُ ليس يحفظ. مُخَّا

ولئن يشكو صامتاً وتَرٌ .. إذْ

كلما شُدَّ فى يد العود : يُرْخَى

فأنا أشكو فى انقسام الخلايا

وبحارٌ تُضَخُّ فى القلبِ ضَخَّــا

يتقاسمنى الماءُ والنارُ ، توقفنى صرخةُ العرباتِ ..ويوقفنى الضوءُ فى واجهاتِ المتاجرِ (يُشْعُل ، يُطْفأُ..يُشعلُ ، يُطفأ أُشْعلُ ، أُطْفَأ .. أُشعلُ ، أُطفأُ)

تدفعنى فى الطريقِ إشاراتُه–للمرورِ–وتوقفنى بالسلام كفوفٌ وأَبحث عن صوتكِ اللهبىِّ .. وعن ثوبكِ اللهبىِّ

تَعَرَّيْتِ. ياللجواد المعاند ، فقاعةٌ المــاء تلتفٌ حــول سنابكه . والسفائنُ تخترقُ البحرُ . . تدعــوكِ راحلة . .

وأنــا :

يتقاسمني الماءُ والنارُ . . . أدعــوكِ

دونكِ يشربني المــاءُ ... أدعــوكِ

تأْتين نافذة تدخل الشمسُ منها إلــــيَّ . .

لَعَلِّــي أدخلُ فى الشمسِ يوماً

ليرجع عبرَ الدماءِ – الجوادُ المعــاندُ ،

يدخل فيها .. وتدخل فيه .

وتصبح : حمحمةً وصهيلاً ،

تَناثَرُ – تحت سنابكه – شعلاً

من شظايا النجــــوم .

٢

الجوادُ المعاندُ يركضُ فى طرقاتِ المدينةِ ،

يركضُ عبر الزحــــام

- تَمَهَّلْ . .

تَبَيَّنْ خطــاكَ . .

فإن الميادينَ والِدةٌ . . والشوارعَ مولودةٌ

وعلى كلٍّ ناصية : شارعٌ يتزوّج حافلةً

وتُداسُ الشوارعُ بالحافلاتِ

(وأنت صغيرٌ . . ولا تفهــمُ)

تَتَمَطّىٌ المتاجرُ ، تسْمَنُ .. ، يَنْحَلُ فى الطرقاتِ الصغارُ

وأنتَ صغيرٌ . . ولا تفهــمُ)

ترتمى واجهاتُ المحلاَتِ فوقصدورِ الذين يجيئون ، ياقاتُهُمْ

ليس تَتَّسِخُ . . .

انتبهى ياشوارعَ هذى المدينةِ ، هاهوذا يتغير

فيكِ الجوادُ المعاندُ ، هاهو ذا سائرٌ تحت ألوانِ ضوء النِّيُونِ

وما كان تحت سنابكهِ شعَلاً : أَصبح الآن قدّاحةً للسجائرِ

فى كفِّه .. والصهيلُ تبدَّل قهقهةً .. والحوافرُ أحذية .. هو

يشرب قهوتَهُ ، قارئاً فى الصباح جريدتَهُ . .

وتعلم ما كـان لا يعلمُ

إقرئى وجههُ

إسمعى نار تاريخهِ . .

لم تزلْ فى دماه كراتُ لهيبٍ . شموسٌ صغيره

تستبدُّ بهِ .

كلَّ ليلٍ : تهــزُّ سريره

وتذكّره بالذى كان . .

(فالأَرض عاهرةٌ يتزوّجها الماءُ — تغرقُ جوهرةُ النارِ —

تبتسمين لكل الوجوهِ .. ومدعوَّةً ترقصين.. هو العُرْسُ

تلتفُّ حولكِ من مُقَلِ الحاضرين ثعابينُ من مَطَـرٍ)

تتقافزُ هذى الشموسُ الصغيرةُ عبر دمائى كلَّ مساء

تحاكمنى ... وأنا : يتقاسمنى الماءُ والثلجُ كلَّ صباح ،

يلوِّثنى المِلْحُ

(أَخشى عليكِ .. التواريخُ شاهدةٌ

والتواريخُ حاكمـةٌ قاضيه)

ترقصين .. ولاتعلمين الذى تتنبأ هذى العروقُ بـه ..

وأنا بالتراتيل أَدعوكِ

ـ مختنقاً غارقاً والتراتيلُ خـافتةٌ :

فوق غصن يمتدُ فى الغابِ عُشٌ

كان يحمى من العواصفِ فرخا

وتَمطَّى على السماء جناحـاً

فأَتتْهُ عداوةُ الليلِ زخـاً

وتوخى فى جبهةِ الليلِ ضـوءًا

إنما خـانَ عَيْنَهُ ما توَخَّـى

فتهاوىَ من الفضاءِ سقيمـاً

كَسَوِىَ – فى لحظة – صار مَسْخاً

ويل عظمٍ ينامُ فى العُشِّ كوماً

كان – بالأمس فى فضائك رُخًّا

ويل عظيمٍ ينامُ فى العُشِّ كومًا

كانَ – بالأَمس فى فضائك رَخًّا

الجوادُ المعاندُ يقتحمُ الطبقاتِ .. ويصعدُ فيها ، يجيدُ الحديث
مع الفقراء ، يجيد الحديث مع الامراءِ ، يجيد التألُّقَ .. يلتهم
الطرقاتِ بسيارةٍ . . ويَؤُمُّ المحافل ، يدخلُ فى فَلَــوَاتِ
السياسةِ ، يعرف دربَ القصورِ .. وتضحكُ صورتُه فى
الجرائدِ .. هاهو ذاصار - ذات صباحٍ - زعيماً
غَدتْ تتألقُ فى بيتهِ مُقَلُ الحاضرين نجوماً
فتأْخذه عاصفاتُ الخيالِ :

لكِ اللهُ ياشعلاً من شظايا النجــوم..
لكِ اللهُ ياشعلاً من شظايا النجــوم ..

: لمــاذا غدوتَ غضوبــاً
وكنتَ جليداً ، فحتى إذا انْهَدَمَ الكونُ : تبتسمُ ؟
ماالذى يجعل - الآن - قلبُكَ يشتاقُ للفجرِ ،

ماذا ؟ أتخشى الشموس الصغيرةَ تُمْسِكُ كلَّ الأيادى بكلِّ الأيادى .. وتجمعُ أشلاءهاَ وتهبُّ .. فيشتعلُ الماءُ فيكَ . وتغدو كما كنتَ قبلاً ؟ أتخشى اشتعالكَ شمساً .. أتخشى اشتعالكَ ؟؟ ليتكَ تشتعلُ !!

الجوادُ المعاندُ يركضُ فى طرقاتِ المدينةِ ، تشتعلُ الشمسُ فيهِ ويدخلُ فيها ، يُطَلِّقُ فى ركضهِ الماءَ والأرضَ (جوهرةُ النارِ مصقولةٌ) والجوادُ المعاندُ يقطع سُرَّةَ كلِّ الشوارع من بَطْنِ كلِّ الميادين .. يُفْسِدُ – كلَّ مِساً – زيجةَ الحافلاتِ بهذى الشوارع ، تَفْزَعُ من ركضهِ الطرقاتُ . .

ويركضُ . .

يدخل فى الشمسِ ، تدخلُ فيهِ..وتخرجُ منه

صهيلاً وحمحمــةً ،

تتناثرُ– تحت سنابكهِ شُعَلاً من شظايا النجوم

تطير بجانبهِ العرباتُ . .

– تَوقَّفْ

ويركضُ .. والعرباتُ ستصدمهُ .

ـ قِـفْ

ويركضُ .. كلُّ الإشارات تمنعُ عنه المرورَ، تعرقلُه

ـ قِـفْ

ويركضُ . . يركضُ . . يركضُ

٤

أجيئكِ منحنياً أترقرقُ . . والنارُ فى كبِدِى
تَمدُّني من يدى لهبٌ – ذاتَ ليل –
ورُحْنَا نُنَقِّبُ فى طرقاتِ المدينةِ ...
أشْعَلَنى فى الطريقِ وأطفأنى العُهْـرُ .
يضحكُ فى عيْنِ كلِّ البنات
وأشعلنى فى الطـريقِ وأطفأنى
ضَحِكُ العرباتِ يحملقُ فيه بكاءُ الجياع
وأشعلنى فى الطريقِ وأطفأنى!
موعـدُ العيدِ
حين يجيءُ الميادين فى كلِّ عام
وحين يجيءُ الأزقَّةَ ..،
حين رجعتُ : علمتُ لماذا النِّيُونُ بقلبك
يُشعَلُ حِيناً .. ويُطْفَأُ حِيناً ..

وجئتكِ – منحنياً – أحفظُ النارَ فى كبدِى

أترقبُ وجهكِ ،

رغم اتهام التواريخ للضوء فى وجهكِ اللهبىِّ . .

وأدعوكِ ، وحدكِ تدرين مافعَلَ الماءُ بالأرضِ ..

(كلُّ شهودىَ ماتـوا ...

وأنتِ رقصتِ بعرسهما)

وحدكِ – الآن – تدرينَ ما فَعلتْ بالجوادِ المعاندِ هذى المدينة ..

وحدكِ تدرين ماتفعلُ النارُ حين تجىء من الشمسِ :

ندخلُ فيها .. وتدخلُ فينا ؛ فتمنحنا شعلةَ الخلدِ

نجرى ، نجوبُ البرارىَ ،

نصعدُ كلَّ الجبالِ .. ونهبطُ كلَّ السهولِ ،

نعيش الأساطيرَ ، نُعْـرَفُ عبر البـلادِ

هلمى بنا : نتقافزُ فى الريح ،

ند خلُ فى فم هـذى الجذورِ ..

ونصعـدُ عبر الجـذوع . .

ونقفزُ من كفِّ هذى الغصونِ ثمـارًا ...

ونعدو .. ونضحكُ – مختبئيْنِ – ببطنِ زجاجةِ خَمْرٍ . .

ومبتسميْنِ نراقُ ببطنِ قَـدحْ

وتعالىْ .. نهزّ جذوع النخيلِ لتقذفنا بالبَلَحْ

وتعالىْ . سنسبحُ فى الضوء

– نجعل من ظِلنَا قَارِبَـاً . .

وظلال الأيادى مجـاديفَ –

واجْرِى معى ، سَنُذَابُ بأكوابِ شاى المساء

ونخطفُ جَمْرَ النراجيلِ ، نحشُرُ إصْبَعَنَا فى الصنابيرِ ،

نضحكُ .. نضحكُ . ،

نسرِقُ فاكهةً للصغارِ

– ونأخذهم للمدارسِ ، لايهربون ،

– نعلّمهم ، يُصبحونَ شموساً صغيره

يُصبحونَ شموساً كبيره –

نتقافزُ .. نضحكُ .. نرقصُ رقصاً جديداً .

إذا ماتزوّجت الأَرضُ واللهبُ الأَبدىُّ . .

وها أنـــذا جئتُ . .

هُبِّي إلـــيَّ . .

هو البدءُ مشتعــلاً ..

وهو البدءُ مقتحماً ..

وهو البدءُ مبتسماً .

المشهد الثانى

المجىء

- دقة الساعة القادمة ٠
- زهرة النار ٠

دقة الساعة القادمة

الى عبده درغام

وأشربُ صَهْدَ البلاد

وأصعدُ عبر نخيلِ الظهيرةِ مشتعلاً بلَحاَ

وأجيئكِ مُتَّشِحاَ :

بأساطيرِ بلادٍ مُرَّةٍ

وأنا : شَجَرُ الدَّومِ يطرحنى جامد الوجهِ ،

ماء الجداولِ يسكبنى طَيِّع القلبِ ،

جَـذْبُ البلادِ يطاردنى ،

يُشْعِلُ الدَّم عبر عروقى لهيباَ

وتجذبني واحتانِ بعينيكِ ،

تبتسمانِ بصدرىَ ، ترتقبانِ مجيئاً دافقاً مكتسحاً

يشعلُ الخطواتِ إلى دقَّةِ البابِ ... أَوْ

دَقةِ القلبِ . . أَوْ

دقةِ الصّلبِ فى خشَب لصليب جـديد

يعاندنى موسمٌ – فى المواسم – عاماً فعاماً

فيسرق منى شهور الحصادِ

ويقذف قلبىَ عبر البلادِ

ويركضُ خلفى ، يلذعنى بالسياطِ

ويلعننى . .

ويكوّمنى فى الطريق حصَى ..

ثم يَدْهَسُنِى ..

ثم ينثرنِي فى الفضاء غُبَارَا

ويخلطنى بمياهِ فأصبح طِيناً

يحاصرنى الماءُ ، يطفــئُ عبر عــروق لهيبى

فأشعلُ عينيَّ نافذتيْنِ من النارِ فى زمنِ الماء ،
أُطْلِقُ شمسىَ - ثائرةً - منهما .. وأُشَكِّلُهَا فَرَسَا
فاركضى . .
واحرقِى فى طريقكِ كلَّ الخيامِ التى تنحنى
فى انتظارِ السياطِ ، اركضى
فى ديار الظلامِ ، اقلعى - من لحوم الليالى - الذى غُرِسا
وظَلّى اركضى واركضى . .
ثم عودى إلى الماء . . أنتِ أو الماء . . !..
هاهو ذا ساعــدى :
يتحرّك مقتحماً جُدُرَ الظلماتِ جداراً جدارا
ليخطفَ من كَفِّ هذا الدُّجَى موسماً
يتفتّــقُ عــن خبزِكِ المُشْتَهَى . .
ويؤازرنى - فى المواسم - عاماً فعاماً
فكونى على الماء نافـورةَ النـــار
كـــونى . .

لَعَلِّيَ أركضُ يوماً :

جوادا مــن الشمسِ ،

أقتحمُ الماءَ، أعبرُ هــذى البحــارَ..

لعلِّيَ آتى إليكِ حقولَ نجـــوم . .

وشمساً :

أشكّلُ كُــلَّ المواسمِ . .

يادقــةَ البابِ . .

يادقــةَ القلــبِ . .

يادقــة الساعــةِ القــادمه .

زهرة النار

الى احمد طنطاوى

وتركضُ فى الوَهْج مندفعاً فى زمانٍ من الخوفِ ، تبحثُ
عن زهرةِ النارِ ، محتملاً لعنةَ القدماءِ ، تقشّرُكَ النارُ ،
تحرقُها راكضاً ، باحثاً عن سماءٍ تراها .. ومندفعاً باحثاً
عن سماءٍ تراكَ ، تحاصرُكَ الأرضُ ، يشهقُ ماء عتيقٌ ..
ويهرمُ ماءٌ وليدٌ ... وأنتَ تخوضُ البلادَ ، تنقّب عن زهرةِ
النارِ ، مبتدئاً بصهيلِ اللهيب .. ومحتملاً ، صاعداً فى
جبالِ البراكين ، تنبتُ فيكَ صخورٌ من السنواتِ العجافِ
يُبَرْعِمُهَا القحطُ. فوق الفروع حَصَى ، حين يأتى من الأرضِ

ماءً : يروّى الحصَى ، يتفتّح ، يغدو صخورا .. فَهُبّى
من الصدر يادفقةَ النارِ ، هُبّى ، اصهرى الصَّخْرَ .. وانفجرى
فى الطريق خُطى ، بخِّرى من مرَايـاَ المساءِ وجوهاً من الماءِ
أنبتها زمنُ القَحْطِ ، هُبىِّ ، اغسلى صَدَأً السنواتِ ،
ادخلى فى البيوتِ .. فكلٌّ المواجع مفتوحةٌ و النوافذُ .. لكنما
الريحُ ليستْ تجىء : تهزُّ الستائرَ ، تعبثُ بالورقِ المتأهبِ
فوق المكاتبِ ، تاعقُ وجهَ الحوائطِ ، ليستْ تحرّك أثوابنَا..
أوتَحُطُّ غُبَارا على الأَرضِ ، ليست تَشِيلُ غباراً . . . .
فهبّى من الصمتِ يادفقةَ النارِ .. وانفجرى فى الترقّبِ . .
واكتسحى المُدُنَ السامقاتِ التى تنحنى ، هاهو البعث
منتظراً .. وأنا صاهلٌ ، تنفجرّ فِىَّ البراكينُ أبحث عن
زهرةِ النارِ ، يسقى جذورى لهيبٌ يطالعنى من ضِيـاَ مقلتيكِ.

وأبكى :

فيسقطُ دمعــى بصيصاً

أسيرُ ثمينــاً . . وآتى إليكِ رخيصـــاً ،

أقشّر قلبـي .. وأعصُره فى يـديكِ . . .

وأحكي .

لعينيكِ فِـيَّ مشاويرُ . .

تبدأ ساحرةً فى بـلادِ الخـرافـه

وترحلُ ثائرةً فى الأساطيرِ تكتُبها من جـديد ،

تبدّلُ أبطالَهاَ . .

وتعلّمهم زهرةَ النارِ صاهلةً فى زمانِ المخـافه

وتُغْلِقُ بين انتهاءِ الصهيل ، ابتداءِ الصهيـلِ المسافـه

فتنفجرُ الخطواتُ على الطرقاتِ ..

وتركضُ شمسٌ – تزوجتُهاَ فى زمان من الضوءِ –

حاملـةً زهـرةً :

تمزج الماءَ باللّهَـبِ ،

الخمرَ بالعَسَـــلِ ،

النـار بالخطواتِ . .

وتركضُ ضاحكةً . . . .

ولعينيكِ فِيَّ مشاويرُ ضاعتْ

تعلّمني لغةً ليس يعلمها غير من سقطوا ثم قاموا

تنادي عيونيَ عيناكِ . .

حتى تعلّمني سِرَّهَا الأبديَّ . .

وها أنذا قادمٌ .



المشهد الثالث

الغضب

- الخيـــانة .
- ارفعي القمر المتدلي
- الضجيج .
- المواسم تقطب جبينها .

الخيانة

منحتُك صحوى . . ومَوتى . . .

وخنتِ . . !

ارفعى القمر المتدلى

الى محمود عطية

أُخْرُجِى من ثيابكِ يالغـةَ الغضب المتفجِّـرِ ،

هُبِّى ، اخرجى للشوارع عاريةً..

واصرخـى فى الوجوهِ المـدانةِ ،

هبّـى ، ارفعى القَمَرَ المُتدلِّـى..

ولُفِّـى دروب المدينةِ ،

لُمِّـى المصابيحَ : شمساً.

أديرى البيوتَ على نفسها ؛ لتلمحَ ماخلفهـا

وقفى فى الطـريقِ جـداراً

لكي توقفي العرباتِ السِّفَاحَ

وشُدِّي المتاجرَ من نحرِهـا

واجعليها قرابينَ للغضب اللهبيِّ

فإن جيوشاً من الماءِ طوّقت الارضَ ،

تطفئُ فيها اشتعالَكِ ،

تمنحكِ الثوب ضاحكةً

وتُنَصِّبُكِ - الآن - قاضيةً

لستِ قاضيةً . . .

إنما أنتِ ثائرةٌ

فاخلعي عنكِ ثوب التَّروِّي . .

ولاتجعلي الماءَ يطفئُ نارَكِ ،

إني لأسْمَعُهُ يتسربُ مختفياً

يستبيحُ من القاع أحشاءَ أرضٍ :

عشقنا اشتعالَكِ فيها

فلا تتركيها . .

ولا تتـــركينى..

وظَلِّى معـــاندةً زاعقه .

قـــد عشقتكِ عـــاريةً

فـــاعلمـــى :

كـــلُّ خيطٍ

سيخفيكِ عن عَيْنِ ماءٍ

يربد الشجاعةَ فى لحظةٍ واحده ..

يتفجرّ فيها .. ويغتصبُ الأرضَ ،

بأسرهـــا من يدَيْنا ..

ويجعلها فى الشواطىء جـــاريةً . . ،

لو يشـــــاءُ : تُغَنِّى . . وترقصُ

تزفُ .. تصمتَ .. تبكى .

تصبُّ الكؤوسَ .. تداعبُه لو يشاء

ولو رغب : اقتحمَ الموجُ مضجعها

واستباحَ مفاتِنَها ومواجِعَها

ثم حمّلَها من بحيراتهِ الوَحْلِ ذريّـةً

فتعـودُ لنا الارضُ مالحـةً ،
جسمُهَا ناحـلٌ
تتدلّ على الصدرِ أثداؤُهَا
(هِـى ترضعُ خيراتِها
لبحيراتِها .
ثم يهملها غاصبوها)
فقومى ، ارفعى القمـر المتدلّـى ،
اصرخـى فى الشوارع عاريةً
أشعلى لهبـاً غضبياً :
يصدُّ جيوشاً - من المـاءِ -
تقتحـمُ الآن صـدرىَ ،
تقفـزُ مـن مقلـتىَّ . .
وتغسلنى عَرَقاً مستبداً مُلِحَّا
وتخرج عبر مَسَامِّى .. اصرخى
فى الشوارع عـاريةً ...

لاتداری تمرُّدَكِ الأَبـدیَّ

فـانكِ ثـائـرةٌ

والمیاه تطوّقنا أَخطبوطاً ..

فظَلِّـی علی المـاء ناریَّةً . .

أَو : فمـوتـی .

الضجيج

الى م . الشندويلى

كأسى مرآتى . .

أملؤهــا بالحزنِ . فتملؤنى بالسيارات ، الأبــواقِ ، الإيقاع ، نهودِ نساءٍ لم تُخْلقْ بَعْدُ .. ، ألونها بالصمتِ تلونُنى بالجُبْنِ الأبيضِ والزيتونِ الأسودِ .. أبكى، أضحكُ أهربُ من عينىَّ الكاذبتيْنِ .. فأسقطُ فى عينيكِ الكاذبتيْنِ وتصفعنى المرآه :

تتهشمُ فِــىَّ وجوهُ الناسِ .. تُفَجِّرُ فِىَّ كراتُ دمائى ، أتدحرجُ من قمةِ صمتى حــتى قــاع الضحكــاتِ

المجنونةِ .. وأظـلُّ كسولاً كالمـوتِ طوالَ نهارى ، لكـنى
أستيقظُ كالنارِ طِوال الليل ، أنقِّبُ فى مـدنٍ هـاجـرةٍ
عن وجهٍ ضيَّعَنى

– وتَنَاثَرَ عبر وجـوهِ الناسِ
عيوناً وخـدوداً وشفاهـاً –

ينسى عدد الأهدابِ النابتـة عـلـى
جفنىَّ . . وينسى لَوْنَ عيونـى .. وأنا أبحـثُ عنهُ ..
لكن ينبتُ وجهُكِ فى كأسى كلَّ مساء

(وأرتدى مسائـىَ القـديمْ
يضحكُ لى صمتُ العيونِ الكاذبه
تنهرنِى كأسُ المـرايا التائبه
ولو خلعتُ الليـل .. ماذا أرتدى؟
لـولاه :
ماكانتْ سترضَى بى النجـومْ).
عيناكِ تخونان الحزنَ الرابضَ فى عينىَّ .. فيعدو للأحراشِ

ويَفترسُ نُخاعَ العظمِ . . ويوقف فى الجنبيْن قَطيعَ دمائى ،
يُسْقطُ أسرابَ الأيام من العينيْـنِ . . ويخطفُ أفـراخَ
الأحـلامْ من الأهـدابِ . .

فأجـرعُ مرآتى . . ،

يهرب منى حزنى ، لاأدرى أين . . ويرجع
ينظر لى عبر زجاجِ الشُّبَّاكِ . . ومن كـوبِ الشاى . . .
لانى لَوَّنْتُكِ بالضحكـاتِ المجنـونـةِ . وأكلتُ
حـذاءكِ ذات مساءْ ...

(تسقطُ فى المقهى النجـومْ
يَحْطِمُهَا ضِحْكُ العيونِ الميِّتة
يحْطِمُهَا تَدَحْرُجُ النَّرْدِ على الدوائرِ
البيضـاءِ والسوداء
- كالجبنِ وكالزيتونِ -
ترتجُّ ابتساماتُ الضحـى .
مع ارتجاجِ الماءِ فى نرجيلةِ الليلِ الدميمْ

تحمِلُني كأْسُ الليالى المُصْمتَه
وحينما يطلُّ من عينىَّ وجهُكِ الحبيبْ
يأخذنى من الضجيجْ
ويهبط المقهى إلى قاعِ الفناجين
وتدعوني إلى عينيــكِ مــرآتي :
فتبكى فى دمى نَجْمُاتِى المُفَتَّتَه،
تقــول أنشودتَهَـــا :
الدفءُ لى موعدُ .. والليلُ لى أُفُــقْ
واليومَ أَهوِى .. ويهوِى من دمى أَلَق
فالبردُ يطفئُ .. والاكبادُ تحترق
والجوعُ يُظْمِئُ قَلْباً داسَهُ الغَرَقُ
الكأسُ تحرقنى
والموتُ يقطعنى
وفُتِّتَ الجسمُ .. حتى فُتِّتَ الحدقُ)
يأتيكِ الأَغرابُ من البابِ فتخفين ثيــابى عــن أَعينهــم

أتجشّأُ فى الليلِ طِلاءَ حـذائِكِ ، تطـردُنى عينـــاكِ الكاذبتانِ ، تهشّمنى مِرآتى .. وتهشّمنى قهقهةُ الفقّاعـاتِ ببطنِ نراجيلِ المقهـى ، أعـدو فى الليلِ وحيدًا ، تنْبَحُ خلفـى أثـوابى ، أعـدو .. ويقهقـه خلـفَ خطـاى الإيقاعُ ، الشاىُ ، نهودُ نساءٍ لـم تُخْلَقْ بَعْـدُ ، ويدعونى وجـهٌ ضيّعني : . . . وتناثر عبـر وجـوه الناس .. أحملق فى الأكوابِ وفى الأحـــراشِ . . فأشهقُ ..

(حين يضجُّ المقهى : يهربُ وجهُكِ منى)

تزأرُ فِـىَّ الضحكاتُ المجنونةُ ، يزأر فِـىَّ فتاتُ النجمـات تقهقـه حـولى أثوابُ الغرباءِ .. وأبكـى وحــدى . . فأعـودُ إلى مـرآتى :

تطـردنى ! !

(وأحلم أنْ :

ستنتشرى على الأرجـــاءْ

وترجـوكِ البلادُ . .

وتعرف – بعد العناء معانىَ الأسماء

وأحلم أنْ .

ستنفردى حقولاً تمسح الإظلامَ والإعياء

(وتخضرّين ،

ترتقبين تائبةً . .

وتبتسمينَ راهبةً ..

وتبتاعين خُبْزَ البدء والأثواب للفقراء

وأحلم أنْ ...أحلـمُ أنْ . . .

أحلـمُ أنْ . . .

ويلـــى .. ! ! ...

تنبحُ خلفى قهقهةُ الغرباء الآتينَ من الشرقِ ، الآتينَ من الغربِ . . فأعدو.. أعدو .. وأجــئُ إليكِ ، أُلَمْلِم أثــوابى وأهشّم كــلَّ مَراياىَ وأنظرُ فى عينيكِ

وحيدًا أبكى :

فتقهقه عيناكِ الكاذبتانِ أمامى..

ويضجُّ المقهــى .

المواسم تقطب جبينها

الى محمد الروبى

تبيعينَ وجهىَ . .

(من يَهَبُ القادمينَ مواسمهم ؟ !)

تتقلّص فـوقَ الفروع البراعمُ ،

تُسْقِطُنِى هامةُ النبتِ ..

فاشتعلى ياروُوسَ النخيلِ بِشَيْبِكِ

ضاعتْ تواريخُكِ ، ارتطمتْ فى جذوعكِ

أغنيةُ الغَـدِ ..

فارمى بطَرْحِكِ - هـذا المساءَ -

ولاتجعلى التَّمْر ينضجُ للأوجهِ الخائنه .

تهـبُّ الحدائقُ ،

تخلـعُ عنهـا الوشاحَ

وترمى بقمصانها فى الرياح

وتخرجُ نائحةً فى الشوارع ،

تشهـقُ ،

تمشى مُنَكَّسَةً ..

وتبيع السجـائرَ للوافدينَ ..

وتستعطفُ الضاحكينَ ،

يمدونَ أَيْدِيَهُمْ ،

يعبثونَ بِثَدْيٍ تَجعَّـد

أرضعهـم فى الزمـان البعيـد . .

فمـن يذكـرُ الآن

ـ فى لحظـةٍ مُـرَّةٍ ـ

بُرْعُماً ، أسقطتْهُ إلى الطينِ

- في لحظـةٍ مُـرَّةٍ -

هـامةُ النَّبْتِ ؟

قـومـى . . .

من الآن وجهـكِ ينضبُ حيـن أَجِـفُ ،

من الآن تنتحـرينَ بصدرى

وتنكمشين بثغـرى

وتسقـط منـى مـواعيدُكِ الفـاتنه .

تخـونين وجهـيَ .

حين يُمَزِّقُ ثـوبُكِ ضاحكـةً ،

حين تُرْمَـى العبـاءةُ فـوق السريـرِ

ويُرمَـى العقـالُ على صورتى ..

وتظلّـلُ بطنَكِ بطـنُ الغـريـب ...،

يتاجـر بى عِقْـدُكِ اللؤلـؤىُّ

وتنتحلُ اسْمِى - فى بـابِ بيتكِ -

لوحتُه المعـدنيّة ،

يصبحُ ثديُكِ مُتَّكَـأً للمرابينَ والمضحكينَ ..

وأنتِ : تظلّين – رغم انتحاركِ فى صدرىَ الضَّيِّق – الحُبُّ ،

رغـم انكماشكِ فى ثغرىَ الغاضبِ : الحبُّ

كيف سأنتشلُ الآن وجهَك

من تحت أحذيةِ القـادمين ؟

وكيف أعيد إليك ثيابَكِ

– تلك التى مزّقتْها زوايا العقـــال –

وكيف تعـودُ الحدائــقُ

كيفَ سيشمخُ فيكِ النخيـــلُ ؟ ؟

تَرُصُّ لـكِ الآن كفٌّ العباءةِ لُؤْلُؤَهَـا

وأرضٌ لـكِ الآن فى كَفِّكِ السُّكَّـراَ .،

تغوصُ أصابعُ كَفُّ العباءةِ ..

فى نهـدكِ المتلهِّفِ ،

تعصرُ أثمـــارَهُ . . ..

وتغوصين فى كَبِدِى خِنْجـرا .

المشهد الرابع

الخروج

- عزف منفرد .
- البحث عن الجواد المعاند
- نرفع الراية المستحيلة .

عزف منفرد

غَيَّرتْكِ الفصـــولُ . .

فماذا تقولُ البذورُ .. وها أَنتِ :

ماعــادَ صوتُكِ يُورِقُ فِـــيَّ . .

وما عــادَ يضحكُ فى البرعم !!

تتوارى المواعيـــدُ ،

أَعلمُ أَنكِ كنتِ كواكبَ - فى كلِّ يوم - تسافرُ عبر دمى

يعلمُ القلبُ : أَن خلاياىَ من قُبُلَاتكِ تولـــدُ ،

أَعلمُ أَنكِ صوتى

أَنكِ وجهــى

وأنكِ لونُ ثمارى وأمطارىَ المُخصبات

وأنكِ فَقْشُ ورودى ..

وأعلمُ أنكِ قد غَيَّرتْكِ الفصولُ .. وأنى :

سأنزفُ وجهَكِ فى الموسم القادم .

البحث عن الجواد المعاند

وأمشى أنقب وحــدى

أحملــق عبر الوجــود .. لعلّى أرى

فى الشوارع وجهاً يذكّرنا ويعلّمنا .

تعالَىْ نَسِرْ فى البــلاد

فإنا سَنَلْقَى الجوادَ المعاندَ فجْأَة

سنعرفــه — لا تخــافى —

ستستشعرين من المقلتينِ الشتائيّتين رضــاهُ ودِفأَهْ

فهيا معــى . .

حملقى فى جميع الوجوه ، افتحى كلَّ بـــاب

ففى موضع ماستلاقين وجه الجواد المعـــاند)

وأمشـــى أنقّـــــب وحـــــدى

أُنقّب ، مرتقباً – كلَّ يوم – غدا

ومنغلــقٌ فى الضلــوع السبيلُ . .

ومُتَّسِعٌ فى العيــونِ المــــدَى . .

نرفع الراية المستحيلة

نبدأ الآن – يازمناً ضَيِّقاً – بعناد جديدْ
نرفَعُ الرايةَ المستحيله
عابرين صحارى الليالى البخيله
صُقِلَ الجلْدُ .. والْتَأَم الوَجْهُ .. وانْفرَطَ الخوْفُ .
ثم تَطَهَّرَ بالجوع قلبى ..
وتابتْ عيونى عن الثمراتِ العليله
هو بَدْءُ خطاىَ لعمرٍ من الحقلِ ..
أو هو وتٌ على الطرقاتِ الطويله .

المشهد الخامس

البدو قادمون

وبغتة دهمته الشــمس الجحيمية ..

وكان أن أحرقته النار .. فاستدار
الى معشوقته القديمة :

بمائها ولهيبهــا الباهت .. ولكن :
كان بينهما مدى .

- الزجاج
- عودة الى الجواد المعاند .
- البقــاء .

الزجاج

الى احمد سويلم

١ ـ كفى

وذاتَ عشاءٍ أكلتُ من الجوع قلبى

سألتكِ بالله كُفِّى ..

سألتكِ بالله كُفِّى ..

أتيتكِ عبر جبالِ المخاوفِ ..

يعرفنى النّملُ والنّحْلُ ،

تعرفنى فى الشقوقِ العقاربُ ..

لو تعلمين الذى كان ،

كيف قُتِلْتُ . .

وكيف بُعِثْتُ . .

وكيف أُتَيْــتُ

ووجهَــكِ هذا انتظرتُ سنينَ طوالْ

وحين تمنّيتُه ـ فى مسائــىَ ـ ثــرثــرةً :

طَــلٌّ منه احتــراقٌ وصمـــتُ

ومابين وجهى ووجهكِ كان الزجاجْ

ـ تذكرّتُ أن المدائنَ مختبئاتٌ بتعريجةِ الخارطه

وأن المسافــاتِ ثــائرةٌ ساخطــه

وأن دروبَ الجبالِ شعابٌ ، فِجَــاجْ

وأن بجيبىَ بحــرٌ .. وفى كفّــى المغلقه :

ريــاحٌ . وفى مقلتــى لحظـــةٌ تــائبه

عبــرتُ السماءَ إليكِ

وحملقــتُ فى مقلتيكِ

وكانتْ جفــونُكِ سُوراً ..

وأهدابُ عينيكِ كانتْ سِياجْ

تقرّبتُ منكِ . . .

وحين توهّمتُ أنّي ألامِسُ وجْهَكِ :

كنتُ ألامس هــذا الزجــاجْ .

٢ ـ المدينة :

مهلاً ..

على عينىَّ حزنُ مدينتى يمشى معى

وأتيت مكسورَ التباهى

دُفٌ من النَّبضَاتِ يخرقُ مسمعى ،

جيلٌ من الأحزانِ ينبتُ فى شفاهى

وأتيتُ منتظرا سكوتَكِ أو كلامى ،

حاملاً غيماتىَ الأُولى بهذا الصيفِ ،

مُجْتَرًّا من الأنغامِ ماقد ضاعَ فى الزمن اللجاجْ

وهتفتُ من قاع السكوتِ فما صمتٌ

وبكيتِ مِلْءَ الثوب فاهترأتْ ضلوعى..

وارتمتْ مابين عينىَّ المدينه

ـ كانتْ شَوارعُهَا تسائلنى

وتُجْلِسُنِى بشاطئ بحرِها

صُبْحاً ، وتطلبُ لى عصيرَ الأمْنِ والقهوه

أُحكى . .

ويرشفُ من جفونِ العينِ- قلبى رشفةَ النَّشْوَه

أُحكى .. وتنصتْ

كنتُ أعرف كلَّ أسعارِ الثياب وأعرفُ التاريخَ

أُحكى ، فجأةً :

نعدو .. وندخل بيْتَنَا ،

ضَحِكاً : نَعِدُّ عشاءنا وفراشَنَا . .

ونعلّم المذياع أغنيةً جديده

وصحوتُ فى يوم شديدِ القيظِ ،

قيل مدينتى خرجتْ لتجلسَ وحدها فى شاطىء البحر

انطلقتُ فما وجدتُ على المدى بحراً.

وما أدرى أسافر فى المساء البحرُ . .

أم أنى أضعتُ البحرَ . . ما أدرى . .

وقلبى كان فى صدرى ..

فأعددتُ الثياب لَهُ

لِأَحْمِلَهُ .. وأخرج في بلادِ اللهِ ،

أبحثُ عن شوارعَ لم يعد منها على عينيَّ

غير الحزنِ ،

أبحث عن صباح القهوةِ الدكناء ،

أبحث عن حكاياتي . . .

وفي شفتيَّ أجيالٌ من الأَحزانِ

أسألها .. فما أَلْقَى سوى غضب اختلاجْ –

وهتفتُ من قاع السكوتِ فما صمتٌ

وبكيتِ ملءَ الثوبِ فاهترأتْ ضلوعي.

وارتمتْ مابين عينيَّ المدينه

– أهلي هناكَ .. وأَهْلُكِ . .

انتظري : على عينيَّ حزنُ مدينتي

وأنا وأنتِ نعيش ثَالِثُنَا الزجاجْ

وبصدريَ الظمآنِ كلُّ شوارع المدنِ البعيدةِ

فاسمعى منّى حكاياتِ المدائن ،

ربما نتذكَّرُ البحر المهاجرَ

وارتقابَ الأهل والقهوه

ونعاند السفرَ المفاجئَ وانتظار الحزنِ والكَبْوَه

نَبْقَى ونثبتُ والمدى يغلى . .

وظهرُ العمر صَدْعٌ وارتجاجْ -

وهتفتُ من قاع السكوتِ فما صمتٍّ

وبكيتِ ملءَ الثوبِ فاهترأتْ ضلوعى .

وارتمتْ مابين عينىَّ المدينه

- غَضَبِى على هذى المدينه

غضبى على هذى الشوارع . . عاندتنى

فجأةً هجرتْ . . .

وراحتْ ، خلْفَهَا بحرى ..

وأبحث فى المدى عن نورسٍ أو قوقعٍ ..

راحتْ وفاتتْ حزنَهَا يمشى معى ...

فتمهلـــى . .

غضبى على صمـت الشفــاهِ .. تمهلى ..

فبكاؤكِ المطـرودُ يطلـق فى عــــروقـى

نارَ بركانِ اختلاج وارتجــاج واحتجــاجْ —

وهتفتُ من قــاع السكـوتِ فمــا صمتٌ

وهكيتِ مِلْءَالثوب فاهترأت ضلوعى .وارتمت مابين عينىَّ المدينه

مفجـورتْ لغـتى . . . وهشّمت الزجــاجْ .

٣ ـ القيظ

البَدْوُ سياراتُهم فوقَ الطريقِ كأنها الطوفان . .
والأحزانُ فى عينىَّ تقتتلُ
فأظلُّ فى خوفٍ من الأحلام أرتحلُ
وأظلُّ مشتعلاً – سنينَ العمرِ ..
محتملاً حنينَ القلبِ للمدنِ الشتائيّه
وتظلُّ ترشفنا – بهذا القيظِ – قهوتُنا الصباحيَّه
وتظلُّ ترجعنا لأرضِ الحلم قُبلتنا المسائيه
خوفاً عليكِ : أُغَلِّقُ الأبوابَ – صُبْحاً –
تاركاً قلبى على صمتِ الرتاجْ
وأروح فى دربٍ عَتِىٍّ القيظِ محموم
أنقّب فيه عن ماءٍ ..
ففى نافورةِ الأحلام قَطْرَاتٌ : فلا تُرْضِى ..
ولاتُشْفِى غليلاً

أمضى . . وأغضبُ آهِ .. أغضبُ يامدينتىَ البعيدة ،
يارحيلَ البحرِ .. ياأصحابىَ الناسين ..ياشوقاً مطيلاً
أمضى . . وينبتُ فجأةً بينى وبين مدينتى ..
هذا الزجاجْ
والبدو فى حُجُراتِهَا . .
والبدو بين ثِيَابِهَا . .
والبدو فى أثدائِهَا ...
وهتفتُ ،
كانتْ فى عيونِ البدو مَرجاناً وعاجْ
وبمقلتىَّ شوارعاً ودَماً وتاريخاً ،
على جسدى ثياباً
فى يدىَّ أناملى كانتْ . .
وفوق الرأسِ تاجْ
وهتفتُ : هُبِّى . .
وانتفضتُ ، رأيتُها تمشى أمامى ..
فانتفضتُ ، مددتُ كفِّى ..

- كان مابينــي وبين مدينتــي هــذا الزجاجْ :

بيني وبينك عُمْــــرُ أحلامٍ بلا مــأْوى

وأحــزانٌ بــلا ميعــادْ

بيني وبينك بلــدانٌ وتأْسرُ خطــوتي أصفــادْ

بيني وبينكِ أيــامٌ بــلا بحــر ..

وريشُ النورس المُلْقَى على الصحراءْ .

عودة الى الجواد المعاند

الجـوادُ المعـاندُ مُلْقًى على مضجـعٍ ناصعٍ

يتردَّى بمستوصفٍ بـاهتٍ

والأطباءُ أيديهمـو لقياس الحرارةِ والضغطِ والنبضاتِ . .

المحـاليلُ عبر الـذراعَينِ ..

والسِّنُّ فى اللحـم ينفثُ نار الدواءِ . . .

وهـذا المعاندُ مُلْقىً ، له مقلتانِ مُغَمَّضَتَان ..

(وفى بطنِ إحدى القرى يتهاوى الجوادُ المعاندُ

هل تعلـمُ الارْض أيـن سنابكهُ الآنَ ؟ ؟

هـــل يعلـمُ المـاءُ ؟)!

فَحْمٌ يــدبُّ إلى القلــبِ ..،

ينفتحُ الجفــنُ لحظــه :

تتدافــع فى الطُّــرُقُ الحــافــلاتُ

وينفتحُ العُــرْسُ ، مدعــوَّةٌ ترقصينَ..

وتلتفُّ حولكِ من مُقَلِ الحاضرين ثعابينُ من مطرٍ

ويغــوصُ إلى اللحــم سِــنٌّ المحــاليلِ

ينفتح الجفــنُ لحظــه :

فــإراهــا تحــلُّ غَــدائِرَها

ثم ترمــى دفاتِرَها ، وتُقَصِّرُ ملْبسها

ثم تخــرجُ راكضــةً .

ـ إنّهَا تقصدُ البحْــر

أعــرفُ أنكِ عاهــرةٌ

ياشوارع هــذى المدينةِ

أعـرفُ أنكِ ساهرةٌ فى ليالى الشّمــــالِ .

يغـوصُ إلى اللحـم سِنُّ المحـاليلِ ،

ينفتحُ الجفــنُ لحظــه :

تترقـرق أغنيةٌ ، لحنُهاَ فى ضلوعىَ يعلو ويخفتْ .

أذكُـرُ ماكان – عبر الزمـانِ القــديم –

يضىءُ .. ويغمضُ ..

أذكـر – فى صدركِ المترجـرج – نـورَكِ

فى واجهـاتِ المحـلاّت . .

(ليت الشباب يعـودُ فاخبرُه...)

قـدمـاى . . .

وينفتحُ الجفــنُ لحظــه :

الملائكةُ البيضُ لَسْنَ ملائكةً إنما بيضُ ، غَيَّرْنَ لى فى المساء

المُلاءةَ ، أعْطَيْنَنِى حبَّةً .. حبتيْنِ . . ثلاثاً . .

وقُلْنَ ابْتَلِعْ .. وتُغيِّمُ عيناى ، لستُ أراهنَّ ،

مرتعــداً لا أرى غيْرَ هذى السنونِ التى

تَغرزُ الماءَ والنار فى اللحـــمِ..

يلتفتُ الوجهُ بغته :

فــأرى وجهــكِ الأَبــدىَّ . .!

خــذينى بوجهكِ .. هذا أنا . .

أفــلا تذكــرين ملامح وجهـــى ؟

ألا تذكــرين الجـــواد المعــانِدَ .. ؟!

حقّاً : تطاولَت الآن منى الأظافرُ واللحيةُ ، الثوبُ مُتَّسِخٌ

إننى أعْتــرِف .

والأَطّباءُ حاروا بجسمى ، التحاليلُ حاسمةٌ والأَشِعّاتُ ثاقبةٌ

إننى أَعترِفْ .

وعظامى تكادُ تَشُقُّ انحناءاتِ جِلْدِىَ .. وامْتُصَّتْ العضَلاتُ

من القَدمينِ .. وخُطــوتــىَ - المستفِزَّةُ - واهيةٌ

إننى أُعترِفْ

يــداى مجعّـــدتانِ . . ولكــنْ بوجهــىَ :

وجهُ الجوادِ الذى هــدّمتهُ الــبلادْ

فانظــرى فى عيـــونى

ففى مقلتــىَّ هُنا جمــرتانِ

وإن كَانَتَا بين جفنىّ خابيتيْن ـ هما جمرتانْ

أفانظــرى لى قليلاً

وانظرى لى طويلاً . . ،

دعينى بعينين ذابلتين أرَ الضّحِكَاتِ القديمةَ فى مقلتيكِ

لعلى أرى بين جفنيكِ تلــكَ الشوارع ..

تلــكَ التى تتقــافزُ راكضةً فى الشتــاء

لعلى أرى غَيْرتِى والمطَــرْ . .

والصحابَ الذين نَسوْنِىَ .. والحافلاتِ . .

وشاطئ بحــرِ التى : تتزيّن فى ليلةِ العيــدِ . .

فالبدو قــد قتلوا فى قــراهــم ..

جــواداً تعــوّد نــارَ العِنــادِ . .

وهــا ينفثون اللهيب حــوالَيْهِ ،

هــاهـــم :

تَمُرُّ بهِ عرباتهمـــو كالرصاصِ . .

ويمشى يجرّ أقدامهُ فى جحيــمٍ من الشمسِ . .

(والشمسُ ليستْ هــى الشمسُ)

ظَلَّــى انظُــرِى لى قليلاً .. طويلا ..

ويوخِزُنِى سِنٌّ هــذى المحــاليل . .

ثم تُغَيِّمُ عيناى بالنارِ . .

إنى . . . البلادُ . . . الذى . . . هــدمتْه . . . !!

البقاء

يجـرّني رغْم أنفـي رغيفُ العناءْ

يقـاتلني الموتُ عبر البلادِ.. فَيشْقَى

ويخنقني الشوقُ مُحْتَكِماً مُسْتَبِدًّا

فـأَحياكِ عِشْقَـا

وتلفظني فى الدروبِ الحياةْ ... وأبْقَـى .

المشهد السادس

● الجحيـــم •

الجحيم

الى غالب الأمير

١

.. وأهْرِمُ فى طرقاتِ البلادِ الغريبةِ محترقــاً

وأُهــرولُ عبر الدروبِ ، وأُذكُــر أزمنةً ،

يازماناً من الركضِ :

كنتُ بطولكَ ، كنــتُ بِعرْضِكَ ... ،

أدخــلُ فى الشمسِ نِــدًّا

أنا الآن أدخلُ عبْداً .. وأخـــرجُ عبْدا

وأهْــرِمُ . . تبرزُ منّى عظامى

وهــا أنذا قتلتْنى بــلادٌ من الماء ـ خــائنةٌ ـ

حينمــا أطفأتْ فى الخــلايا اشتعالــىَ ،

هــا أنذا قتلتْنىبــلادٌ من النارِ

جمــرتُها فى نخــاعــى ..

وتحــرق ظِلِّــىَ ،

هــا أنذا دونَ ظِــلٍّ أسيرٌ ،

يحاكمنى جسدى فى دروبِ التّساقُطِ ،

منغلقاً يرتدى جِلْدَهُ فــوق عظْماتِــهِ

ويعيشُ زمان المهــانةِ ،

يسألنى ضحِكاً وبكاءً . .

فاصرخُ : ياامرأَةَ الماء كيف أطاعكِ قلبُكِ

حين نذرْتِ صغيركِ للطُّرُقاتِ وللنارِ ؟ !

قُــومِى ،

أعيدى إليكِ صغيرك ، قُــومى

وصُومِى ..

يُكفـرْ صيامَكِ عنكِ

وساعتَها : سوف أَضحكُ حين أشاءُ .. وأبكى !

أحبكِ يا امرأةً ترقصين بعيدِ الحصادْ

أحبكِ راعيةً للسواق .. ومالكةً للفصولِ

فظُلِّـى علـىَّ .. فإنى بفصلِ الجحيـم

ـ تَمدَّد فى العـــام مسترخياً ..

وتمطَّـى على مضجـع السنواتْ ـ

يراقبنى النَّمْـلُ ،

تحـتَ حوافِّ الحوائطِ يهمسُ بعضٌ لبعضٍ

بقصةِ هـذا الغـريـبِ ..

وقلبـىَ : نافورةُ الحُلْم ، رطَّـب حلقى

بأُغنيةٍ من زمانِ البراءه ...

حولَ عينىَّ للسنين خطـوطٌ

سرقتْ من تَلفُّتِ الوجهِ عزا

أصبح الآن او تلَفَّتَ : يُحْنىَ

وبصدرى .. من قلبىَ القلبُ نَزَّا

فتعالىْ إلى الرثاثِ هــــواء

وتعالىْ لِمَدّة الكَــفُّ خُبْــزا

وانظرى من عيونِ بُرْتِلكِ قَلْباً

بِسنَانِ من المواجــع غُــــزّا

فخذينى من البلادِ . . خــذينى

وارجعى بى . . فإن عمرىَ جُــزّا

ودُورِى . .

ودُقِّــى على بــابِ عُمدتنا ،

أخــرجيهِ . .

ودورى بــه فى المــدائن ،

دورى بــه فى الكفــورِ

وحين يُفِيقُ : اتركيهِ . .

يمــوتُ دعــاءً وحُــزنًا

فإن لم يمُت : أُقتليه .

تعــالىْ . .

لنخلع عنا ثيابَ التغرُّبِ ، نركضَ عبر المواسم ، ؛ !

هيا اركضـي ،

صالحـي المـاء والنار .

كـلٌّ له موسمٌ ولـه ثَمرُ

فهيا بنا .. هكذا علّمتْنا ليالى الشتاء :

لهيـبٌ - مـن البـرقِ - والمطـرُ

فهيا اركضى فى المواسم ..

يرعـد صوتى . ويرعـد وجهـى ..

ويرعـد فِـىَّ قطـارُ الظمـأْ .

٢

ثيابُكِ فى قصرٍ عمدتنا فى انتظـاركِ

ـ حين تَرُشِّين جسمكِ بالماء ـ

تنتظرُ الآن كـلُّ الثريّاتِ ..

هـذا : مساءُ الحصـادْ

وتُرْفَعُ أجفانُ كـلِّ العيـونِ

وتعـدو إليكِ المُقَـلْ

تَنَقَّلَ وجهُكِ عبر المرايا ،

تبادلتْ القدمانِ أكُفَّ الدَّرَجْ

هنـا تهبطين ..

فتُسْدلَ أجفانُ كلِّ العيونِ عليكِ

يريدونكِ الآن .. هـذا مساءُ الحصادْ

فحين يجـئُ الصباحُ :

يبيعـون مازرعته يـداىَ

وهالكِ يدىَّ تُمَدَّانِ عبر البــلاد إليكِ ..

وكــلُّ البلاد بعيده

(سينسيكِ ماؤكِ ماتفعلُ النارُ فِـــىَّ)

سياتيكِ صوتىَ فى غمــرةِ الحفــلِ ،

يخــرجُ مــن كــأسِـكِ الطائفيَّةِ ،

يهمسُ ممتلئاً خَجِــلاَ :

ألا تحضرين زفــافَ الفواكــهِ فىْ الســوقِ ؟

كلُّ الثمــارِ ستنطقُ باسمــى لكى تذكرينى ..

وأهمسُ ... لاتسمعينْ

فيرعُــد صوتــىَ – فى الحفلِ – يُسْقِطُ كأسكِ منكِ

وينفجــرُ البرقُ عبر النوافــذِ نارًا

ولكــنَّ – فى لحظة – مطــرًا هاطــلاً بغتةً

يسحبُ البــرقَ ،

يغســلُ وجْــه النوافـــذِ منهُ :

فــلا تذكريـــنْ

ويأخـذكِ الحفل منى ..

فيسقطُ وجهـى

تقهقـهُ مابين عينى ووجهكِ نـارُ المسافـه

وتأخـذُ كفـىَ - رغمـاً - بلادُ الخـرافه

ونمشى بـىَ السنـوات ..

فأجعـلُ يومـىَ - كـلَّ صباح - لفـافـه :

أدخّنُها فى انتظارِ مواسمَ ليست تجـىءْ

وأحيـا بـلادَ الخـرافـةِ ..

هـا أنـذا أتزوّجُ بِكْـرا بـدائيّةً ،

تعشـقُ الخضـرواتِ

تخـافُ مـن الحفـلاتِ .

وتأخـذنى مـن يـدى .. .

فأغـوصُ بها ... وأرى .

ولكننى .. كلمـا نُقِّلتْ خطـوتى : انفجرتْ فى دمى

سنواتُ البراءةِ صارخةً..

وتطِلين منها بوجهكِ باسمة ..

فاظــلُّ عشيقاً ،

أنَقِّلُ وجهكِ - حين أُنَقِّــلُ خطـوى - معى

قَــدَرًا : أن تغوصى إلى قــاع مــائكِ

حيــن أغــوص إلى جمــر نــارى!

٣

تزوّجتُ هـذى البلادَ الغـريبةَ ..

هاأنذا داخـلٌ فى الـدروبِ التـرابِ

وهـا أنذا خـارجٌ تحت جمـرِ الظهيرةِ

تجهلنـى الناسُ

أقـرأهـم .. وهمـو يجهلون القـراءه .

ولكـنْ . .

إذا مـاانتحيـتُ وحيـداً

أصبُّ السمــاء – بكوبى –

وأشربُهَـا مطـراً ورعوداً وبرقاً

وحيداً أنا أضعُ الأرضَ فى بطـنِ خبـزى

وألتهـم الطـرقاتِ ، الحقـولَ ، البلادَا

فتكسِرُ ضرسىَ – حـانقـةً – بلـدةٌ :

كنتُ أعشقهـا فى زمـانِ البـراءه

تنامُ بحضن الشّمالِ ..

وألقتْ بقلبيَ ..

منذ رمتْ بي إلى نارِ هذا الجنوبْ .

فأخرج للطرقاتِ أهرولُ مرتعدًا

يتقاسمني العشقُ والبعدُ ..

والخوفُ يدفعني

والخطى المستبدةُ تنهرني . . ،

فأهرولُ منقسمًا ،

تتلقفني بلدةُ النارِ ، يلحمني جمُرهَا ،

أتجمّع فيها لأمضيَ منفردا

فأواجهَ أقسى سقَرْ

وأحملَ زاديَ أغنيةً في السَّفَرْ

وأمضي...

بين جفنيَّ دمعةٌ ليس تهوى

مثل جرح بمقتَّي لن ينزّا

وبصدرى من المواجع خَفْـــقٌ

يفعم القلبَ – بالتذكر – وخْزًا

وأنادى : فيذبل الصوت منى

ثم أخطو : فيسقط الخطو عجزا

أنتِ قد بتِّ للأمومة صـدرًا

وتحولتِ للقســاوةِ رمـزاً ..

رغمهذا فأنتِ لو كنتِ نجماً

لصعدتُ الفضاء فى الليل قفــزا

فعــلى ناهديكِ تاريخ طفــلٍ

لو تناءى : سنونـه تتنــزى

ورجــاءٌ بمقلتــىَّ تــردّى

وبقلبى – من الدياجير – فــزٌّا

كنتُ أفــدى لقاءنا بحياتى

فلماذا لقاونا ، الآن، عَــزًّا ؟

أين عمــرٌ عمَّدْتُهُ فى دمــائى

حينما كنتِ فى سقوطىَ : فوزاً ؟

هاهو ـ الأمسِ ـ كان طفلَ كلينا
نحرُه ـ اليوم ـ بالسكاكين حُزّا.

فاذكريني . . فخنجرٌ من لهيب
بين عينيَّ يُغرز الآن غَـــرْزَا

هل ستُحصَى السنون في العمر عدًّا
أم ستُحصى السنون في العمر فَرْزَا ؟

فبلادٌ تنيلنا الليـــلَ نـــارًا
وبلادٌ تنيلنـــا الليـــلَ خبـــزًا

وخطانا على الدروبِ دعـــاءٌ
علَّنَا في غـــدٍ نكون أعـــزًّا

وأمضى بأُغنيتى أتَنَقَّلُ في الطرقاتِ

وأهبطُ سوقـــ ،
ينادى ـ ضُحـــىً ـ أُذنِـــى : كَذِبُ البائعين
ولكنْ : يناغى فؤادىَ صوتٌ قـــديم
يوشوشني
ويضىءُ دُجَى أُذُنـــىَّ حـــديثُ الفواكهِ عنكِ وعنى

وتشكو – معاتبةً – منكِ . . .

كيف نسيتِ احتفـالَ الزفـافِ ؟

فكـلُّ العناقيدِ كانت ستلثم كفيـكِ ،

كلُّ ثمارِ المواسم كانت ستحكى الحكاياتِ عنكِ وعنى

وظلَّتْ جميعُ الفواكهِ تدَّخِرُ الأُغنياتِ ، الزغاريدَ ..

حتى تجيئى

رهاهى زُفَّت بدونِ زغاريدَ حين تخلَّفْتِ ..

لكنهاحزنتْ بغتـةً ..

حينما علمت أنَّ بيعَ الفواكه كان بقصرٍ عظيم

وما كان بالحقلِ ..،

كانت تسائلنـى :

كيف خنتِ الحقـــولَ ؟

صمـــتٌ .

وكيف نَسِيتِ غناء الفصولِ ؟

صمتٌ .

وكيف اشتريتِ عقـودكِ تلك ..

ببيع العنـاقيد ،

كيف اشتريتِ كـراتِ خيوطِـكِ بالبرتقـالِ..

وكيف اشتريتِ (الزّرايِر) بالمشمشِ ؟

انفجرتْ فى يدىِ حبّةُ الكَرْم حين صمتُّ ..

فقلـتُ :

مُباعٌ أنـا مثلكـم

فقد نـذرتنىَ للطرقاتِ وللنار منذ وُلِـدْتُ . . .

ولكنهـا أمهلتنى إلى موسـم المـاء ..

ثـم رمتْ بي إلى بلـدةِ النـارِ قـائلةً :

(قَـدَرًا أن تغـوص بنـاركَ ..

حيـن أغـوصُ بمـائى !) .

مُباعٌ أنـا مثلكم ..

ياحقـولى – التى تتناثـرُ بين الكفـوفِ ..–

إلى بلـــدةِ النـارِ ،

بينـى وبين الشمـــالِ :

جنـونُ المسافـه

وبينـى وبين بــلادِ الحقيقـــةِ :

قَفْـــرُ الخـرافـه

وبينـى وبين حقـولى :

مخـافـه

وبينـى .. وبحـرىَ : نـارٌ

ففجِّـرْ مياهكَ يابحـرُ فى قلبـىَ المُشتعِـــلْ

وذُرْ بـى ريــاحــاً . .

وأطِلـــق يــدِى موجـةً ..

وكَفَّـــىَّ عبْر السَّما نورسيْنِ ،

أعـدنى إليك :

رعـوداً وبـرْقـاً ، مطـــرْ

أعـدنى . .

فقد أحرقتنىَ شعلةُ هذا السَّفَرْ

أعدني .. فإني :

عشقتُ بحضنكَ وجْه مدينه ..

وإن كان - في ساعةٍ -

خانني قلبُهَا .

٤

يشدُّ يدِى - فى البلادِ الغريبةِ - كوبٌ من الماء

يسخرُ منّى ، يجرُّنى وجهُه

وأنا لاهثٌ خلفَهُ ..

ولسانىَ ليس يبدِّل لى شفتىْ

فأهتف - فى لُهْبتِى - يازماناً من النِّيلِ ،

ياطَيِّباً ياحزيناً ..

لكَ اللهُ ..

ينبتُ عبر دمى طيفُكَ المطرى

أرى جسمكَ الموسمىَّ :

إذا ماتمطى .. تمطَّتْ حقولُ

ويطفو زمانٌ جميلُ

ويأتلق العشقُ فىَّ .. !

أحبكِ ياهبةَ النِّيلِ .. ياامرأةَ الماء ..

أعشقُ وجهكِ مبتسماً طازَجاً ،

دون أصباغهِ .. وبأصباغهِ .

وأرى فيكِ عِشقَ الشَّمالِ ،

أرى فيكِ أثمارَ كلِّ الحقولِ ...

أرى عِنَباً ، تتفجرُ بين عناقيدهِ حبةٌ ،

بذُرها بابُ عمدتنا ..

فتذكّرني : أنتِ فى القصرِ ياامرأةً

(تتزيّن فى ليلةِ العيدِ للوافدينْ)

تبيعين ما تملكينْ

فوجهكِ للغرباء ..

وعمرُ صغيركِ نَذْرٌ إلى النارِ ،

يوقَدُ فى الطرقاتْ .

وها أنذا صارخٌ فيكِ :

وحدىَ أعرفُ تفسير حُلْمِكِ ،

عمدتُنَا عالمٌ بالسَّمانِ ..

ولكننى الآن أعرفُ معنى عجافكِ وحدى

ووحدى أنادى . . .

ولا تسمعينْ ..

وتُطفأ – مابين صوتى وسمعكِ – نارُ النداء ..

فأحلُمُ أنّ حقولكِ هَبَّت إلى القصرِ ،

يغمرُه طينُها

وأحلمُ أن الفؤوس مدافعُ ،

أن السنابل تخرجُ منكِ رصاصاً

وأحلمُ بالبرتقالِ قنابلَ ،

أحلمُ .. أحلمُ ..

أحلم . . وحدى .

٥

أحلـمُ أنكِ ياامرأةَ الماء خـارجةً بيـن رهْطِ البناتِ
بفستانكِ القـروى
وسائرة فـوق رأسكِ حاملـةً جـرَّةَ المـاء ،

تخفين وجْهَكِ عنى
ويحمـرُّ خـدُّكِ منى

وأحلمُ أنكِ – ياامـرأةَ – عُـدْتِ بِنْتَـا
يشوقُكِ شكلُ الزهـورِ
يشوقُكِ لـونُ الثمـارِ
وملْءُ الجِـرارِ
وتُفْرِحُكِ البقـراتُ إذا حُلِبتْ
والخِـرافُ إذا وُلِـدتْ
والدجاجـاتُ حين تُنَقِّـرُ أرْجُلَهَا

والرجالُ إذا طلبوا منكِ شاى المساء

وتنتعشين إذا ماحلمتِ بركضِ جوادٍ عنيد

وتبكيكِ أغنيةٌ . .

عن حبيبٍ يضيع بدرب السَّفَرْ

وأحلمُ أنكِ طاهرةٌ كالعداله

وأنكِ وضّاءةٌ كالحماسه

وأنكِ عارفةٌ درب أخلاقكِ اللؤلؤيةِ ،

لستِ تحيدين عنهُ ،

كأنكِ مطلقةٌ كالرصاصه

وأحلمُ أنكِ – من بين صمتِ الرجالِ –

تهبين كِلْمةَ حقْ

وأنكِ صادقةٌ فى حديثكِ كالثّوْب حين يُشَقّ

وأنكِ سامقةٌ كالسَّحابِ ..

وأنكِ دانيةٌ كالمطَرْ !

وأحلـم وحـدى ..

ويـأخـذنى الحلـمُ ،

يعبـرُ بى ضحكـاتِ المـواسم

لكنه بغتـةً :

يهجـرُ القلـب ،

يتركنى فى تَجهُّم عمرٍ من النارِ ..

يـاموسمٌ دائـمٌ ..

تترقّبنى مقلتـاكَ ،

تـراقبنى طرقـاتكَ ...

هـا أنـذا أتحـداكَ ،

هـا هـو قلبىَ : ساقيتى ،

ثـورُهـا لهَـبٌ

لاتَجِـفُّ .. ولا تُطْفَـأُ

وصالحتُ – فى صدرى – المـاءَ والنـار ..،

هـا أنـذا أتحـداكَ ياموسمٌ دائمْ يتسلّحُ بالجمرِ ..

هـا أنـــذا أتحــدّاك ،

لى شعلــةٌ فى ضلــوعى ولى مــرْفَـــأُ

وهــا أنـــذا يابــلادُ من النارِ ...

هــا أنـــذا .

٦

أحبكِ ياامرأةَ المســاء ،

عشقــى يعلّمنى المـوتَ فيكِ

وعشقـــى يعلّمنى أن أعيشَ ،

أصـــارعُ فى بلــدةِ النــارِ .

حتــى أُحقّــق نَــذْركِ . . .

فـالتفتـى ، أخبرينــى :

متى ستعيــدين هــذا الصغيرَ إليكِ ؟ !

فـإنى هنا أستمــدُّ قــواى العتيَّةَ منــكِ :

فكــلَّ مســاءٍ تــدقُّ على البابِ ..

رائحةُ اليودِ من بحركِ الثائــرِ

ويأخذ جلدىَ من طَمْيِ نيلِكِ لونًا

وصوتُكِ يصفو بمذياعىَ الساهرِ ..

وأهــواكِ حقـــلا

وأهـواكِ سجنا ..

وأحلـمُ وحـدى.....

فـأكبـر كـلَّ مسـاءٍ ..

وأغضـبُ . .

أغضـبُ كـلَّ صباح على النارِ ،

ألعنُهـا ..

وأخـوِّضُ فى جُـدُرٍ مـن لهيـب

وأغضبُ منكِ

فـإنى أريـدكِ . .

إنى أُريـدكِ يـاامرأةَ المـاء ..

إنـى أريـدكِ . . .

ياكـم تَهُبِّينَ فى جسـدىِ :

لهفـةً تتطلعُ للموعـدِ المرتقـبْ

وياكـم أحـنُّ لكفِّـكِ

تمسحُ عـن مقلتِـى آهتـى . .

ولصوتكِ يغسلُ - عن خطــواتى - التّعبْ

ويأكــم أحــن لفاكهــةٍ منكِ ،

ليست تُفَجَّرُ مابين كَفَّــيَّ

- غاضبةً -

حبَّةٌ مــن عِنَــــبْ ؛

٧

غفــوتَ ..

رأيتُ الشتــاءَ .

رأيتُ – بقلبكِ – وجْـه مـدينه :

عشقتُ شتاءَكِ فيهـــا . ..

عشقتُ العيـونَ اللعـوب ،

عشقتُ العيـونَ الحـزينه

عشقتُ بها أمسياتِ الشّمـالْ

وأنتِ تدورين كُـوباً مـن الشايِ ،

تشتغليـن لفـائفَ ،

تسـرين فينَـــا ،

تضميننـا بـذلـةً ..

وتثيرين مـابين أحشائنا صُورًا موقـده

وتنفلتين على ساحلِ البحرِ راكضةً تضحكين ..

ونركضُ خَلْفَكِ ،

نلمس ثَوْبَكِ ،

نضحك مِلءَ الفضاء ،

تضاءُ الليالى ..

وينسى الدجى موعده

ونمرح عبر شباب الشوارع ،

إن الشوارع مولعةٌ بالضياء وبالضحكاتِ ..

وبالناسِ ..

بالعرباتِ ..

بثرثرةٍ فى وجوهِ المتاجرِ ،

مولعةٌ بالصحابِ وبالأوجهِ العائده

فويلى إذا لم تعيدى خطاىَ إليكِ ..

وويلكِ لو لم تعيدى صغيركِ يوماً إليكِ

ففى كلِّ صوبٍ : صغيرٌ غريب

إذا هبَط السُّـوقَ

- كـلَّ صبـاح -

تُفَجَّـرُ فى كَفِّـهِ حبّةٌ مـن عِنَبْ

فـويلكِ ..

لو جمعتْهمْ مـن النارِ كَـفٌّ الغَضَبْ !

٨

« على بـاب مِصْـر تـدقُّ الأكُـفُّ ..

ويعلـو الفسجيجْ(*) . »

تـم بحمد الله

(كتبت قصائد الديوان من ١٩٧٦ الى ١٩٨٠)

(*) كامل الشناوى .

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٢٧ / ١٩٨٥

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٥٥٥ ـ ٤